محكم

على هامش خطابة أفلاطون:
عودة إلى محاورات لم تنل حظّها من البحث

حاتم عبيد
باحث تونسي

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

ملخّص الدراسة:

نتناول في هذه الدراسة بالقراءة والتحليل ثلاث محاورات (يوثيديموس وبروتاغوراس ومينون) لم تكن الخطابة فيها موضوعاً مباشراً، ومن ثمّ أُهملت، ولم يحتفِ بها الباحثون الذين اهتمّوا بالخطابة الأفلاطونيّة، لأنّهم وجّهوا عنايتهم بالأساس إلى محاورتين معروفتين دار الحديث فيهما بين سقراط ومحاوريه على الخطابة إلى جانب مواضيع أخرى؛ نعني بذلك محاورة غورجياس ومحاورة فيدر. وقد رأينا من المفيد العودة إلى تلك المحاورات، والتقاط ما جاء فيها من إشارات قريبة أو بعيدة إلى الخطابة، بدت لنا عند القراءة والتحليل على غاية من الأهمّية، لما كشفت عنه من مواقف خفيّة أبداها أفلاطون على لسان سقراط تجاه الخطابة وممارسيها، ويمكن أن تكون منطلقاً صحيحاً لمن يريد أن يفهم ما سيبديه هذا الفيلسوف في محاورتي غورجياس وفيدر تجاه فنّ القول من مواقف لا يزال الدارسون يختلفون بشأنها.

1– الخطابة في محاورات أفلاطون: دعوة إلى توسيع دائرة البحث

نسعى في هذه الدراسة إلى أن نعيد النظر في تصوّر أفلاطون للخطابة، عسانا نفهم موقفه الحقيقيّ منها وتطوّر آرائه في شأنها، إن كان هنالك تطوّر يذكر. وقد رأينا من اللاّزم والمفيد ألاّ نقتصر على المحاورتين الشهيرتين: غورجياس (Gorgias) وفيدر (Phaedruss) اللّتين عوّل عليهما جلّ الدارسين الغربيّين والعرب ممّن تناول الخطابة الأفلاطونيّة، وأن نوسّع دائرة النظر، لتشمل ثلاث محاورات أخرى، هي محاورة يوثيديموس (Euthydemus) ومحاورة برتاغوراس (Protagoras) ومحاورة مينو (Meno).

نعم، لقد عدمنا إفادة الدارسين من هذه المحاورات الثلاث في ما عدنا إليه من دراسات اعتنى مؤلّفوها بالتأريخ للخطابة والوقوف على إسهام أفلاطون في هذا الإرث الخطابيّ. وفي المقابل، وجدنا حضوراً قارّاً للمحاورتين المذكورتين وتعويلاً كلّياً عليهما، كلّما دار الحديث على خطابة أفلاطون. فقد أفرد كينيدي على سبيل المثال لهاتين المحاورتين قرابة العشرين صفحة من كتابه الموسوم بـ "الخطابة التقليديّة" (Kennedy, 1999: 58-74)، فضلاً عن الصفحات التي خصّصها من كتابه "فنّ الإقناع في اليونان القديمة" لمحاورة فيدر. وكان ذلك في إطار عرضه لـ"نظريّات الخطابة المبكّرة" (Kennedy, 1963: 74-80). ولم يشذّ فيكر عن هذا التوجّه في استخلاص نظريّة أفلاطون الخطابيّة. فأساس الفصل كتبه تحت عنوان: "هجوم أفلاطون على الخطابة" تحليل مفصّل لمحاورة غورجياس وعودة سريعة إلى محاورة فيدر. (Vickers, 1988: 28-147)

وعلى هذا النهج، سار هارّيك في كتابه "مقدّمة إلى تاريخ الخطابة ونظريّاتها"، محلّلاً بشيء من التفصيل محاورتي غورجياس وفيدر، معتبراً أنّهما تمثّلان محطّتين مهمّتين لمن يريد أن يفهم موقف أفلاطون من الخطابة، وتعكسان موقفين متباينين أبداهما أفلاطون من الخطابة: موقف يُدين الخطابة السفسطائيّة وتعكسه بوضوح محاورة غورجياس، وموقف تجلّى في محاورة فيدر، فيه دعوة إلى خطابة أخرى، هي خطابة الفيلسوف (Herrik, 2008: 52-71). وقد مثّلت محاورتا غورجياس وفيدر الأساس والمرجع اللّذين بنى عليهما الريفيّ الصفحات التي حاول فيها أن يحدّد موقع أفلاطون في المشهد الحجاجيّ بأثينا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وذلك في إطار الحديث عن الصراع القائم بينه وبين السفسطائيّين على القول وكيفيّة بنائه وعلاقته بكلّ من الوجود والحقيقة والقيم عموماً. (الريفي، 1998: 62-85)

ولا بدّ أن نذكّر ههنا بالجدل القائم إلى حدّ الآن بين قرّاء أفلاطون وشرّاح أعماله، والذي يدور موضوعه على ما إذا كان هناك تطوّر في موقف أفلاطون من الخطابة. فهناك من اعتبر أنّ موقف أفلاطون من الخطابة واحد لم يتغيّر، وأنّ ازدراءه الخطابة بقي ملازماً له طول حياته، وأنّ ذلك راجع بالأساس إلى كرهه الثقافة الإثينيّة على وجه عامّ والسفسطائيّين على وجه أخصّ. ومن الذين تبنّوا هذا الرأي هانت (Hunt)، إذ رفض

الفكرة القائلة بأنّه توجد في محاورة فيدر خطابة مثاليّة بعيدة كلّ البعد عن حدود البشر وإمكاناتهم، مثلما تبعد جمهوريّة أفلاطون عن مجتمع أثينا.

وغير بعيد عن هذا الرأي، موقف الذين رفضوا تأويل حديث أفلاطون عن خطابة مثاليّة على أنّه تغيّر في الموقف ودليل على مصالحة أقامها أفلاطون مع الخطابة. فالرأي عند هؤلاء أنّ أفلاطون وسّع حدود الجدل، حتّى يستوعب مختلف ضروب الخطاب. وليس مدار الأمر- مثلما يزعم آخرون- على توسيع مجال الخطابة، حتّى تحتوي الجدل وتُدخله في دائرتها. فهيهات أن يعدل أفلاطون عن موقفه المبدئيّ الرافض للخطابة. كيف ذلك، وهوالذي يحمل اعتراضات جوهريّة تتعلّق بنوع الحقيقة التي يعبّر عنها الخطيب، والتي بمقتضاها تقع الخطابة في دائرة الكذب، والتي بسببها نبذ أفلاطون الشعراء وطردهم من جمهوريّته؟. (تُراجع هذه المواقف في مقال: Quimby, 1974: 71-72)

ويعتبر بلاك من أبرز الذين قالوا بخلاف الرأي السابق، رغم وعيه العميق بما تثيره محاورتا غورجياس وفيدر من مشاكل في القراءة والتأويل. فهاتان المحاورتان-في تصوّره- تُحرجان الشرّاح، حين يجعلون الواحدة منهما بسبب من الأخرى ويقارنون بينهما. فنحن في غورجياس إزاء موقف من الخطابة تغلب عليه السخرية والمشاكسة والتفنيد. أمّا في فيدر، فالموقف من الخطابة إيجابيّ وبنّاء، والتعبير عنه جاء في لغة شعريّة فخمة. وهذا ما يثير السؤال التالي: هل تعكس هاتان المحاورتان رؤيتين متناقضتين للخطابة صدرتا عن كاتب واحد هو أفلاطون؟ وقد كان تمثّل الجواب في قول أولئك الشرّاح إمّا بوجود تحوّل حاصل في ذهن أفلاطون، وإمّا بحدوث تحوّل في تعريفه الخطابة. أمّا بلاك، فالرأي عنده أنّ هجوم أفلاطون لم يكن موجّهاً إلى فنّ الخطابة في حدّ ذاته، بل إلى أولئك الخطباء الذين لم يوفّقوا في ممارسة هذا الفنّ وأساؤوا استخدامه (Black, E., 1958: 362-363).

ولسنا نشكّ في أنّ العودة إلى المحاورات الثلاث المذكورة آنفاً، والتي سبقت كتابتها زمن كتابة محاورتي غورجياس وفيدر، وأنّ التقاط الإشارات التي وردت في غضونها، والتي تعلّقت من قريب أو من بعيد بالخطابة، وأنّ محاولة فهم تلك الإشارات ووضعها في سياقها وفي إطار القضايا التي تحتضنها، لا شكّ في أنّ ذلك سيُعيننا على فهم موقف أفلاطون من الخطابة، والوقوف على ما يمكن أن يكون قد طرأ على هذا الموقف من تطوّر وتغيّر لا شكّ في أنّه غير منبتّ عن التغيّر الحاصل في فكر هذا الفيلسوف وفي أسلوبه وفي المناهج التي كان يصطنعها، وهو يتدبّر موضوعات أخرى غير الخطابة (Grube, 1958).

2– محاورة يوثيديموس: هل الخطابة هي الفنّ الذي سيجعلنا سعداء؟

نشير بدءاً إلى أنّ اهتمام أفلاطون بالخطابة يرجع - من جملة ما يرجع- إلى ما تضطلع به هذه الصناعة عند خصومه السفسطائيّين من دور جليل يتمثّل في اعتمادها أداة رئيسة في ترسيخ صفات الفضيلة والقيادة في نفوس تلاميذهم، وهو ما كان أفلاطون مهتمّاً به وساعياً إلى تحقيقه في بواكير محاوراته التي كانت في جانب منها بحثاً في طبيعة الفضيلة، وفي إمكان تعليمها وترسيخها في الناشئة. وتعدّ محاورة يوثيديموس واحدة من تلك المحاورات التي كتبها أفلاطون في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد (390 ق م)، والتي يروي فيها سقراط لكريتون (Crito) حواراً حضره وشارك فيه كلينياس (Clinias) أحد أصدقاء كريتون، وكان المحاوران فيه سفسطائيّيْن؛ هما يوثيديموس وديونيسودوروس عُرفا آنذاك بتعليم الخطابة وفنون الحرب.

وقد جاءت في هذه المحاورة إشارات متفرّقة تخصّ الخطابة، من قبيل ما همس به سقراط لكلينياس من كلام يشيد فيه بمعارف هذين الأستاذين في مجالي الخطابة والحرب؛ فهما على حدّ قوله :"يعرفان كلّ شيء عن الحرب (...). وهما يستطيعان أن يعلّما الرجل كيف يدافع عن حقوقه في محاكم العدل عند تعرّضه للأذى" (أفلاطون، المحاورات الكاملة: 129/3). وقد جاء جواب السفسطائيّين اللّذين سمعا همس سقراط مُحيّراً. فقد أنكرا أن تكون الخطابة والحرب هما المهنتين الرئيستين اللّتين يُجيدانها، وقدّما نفسيهما على أنّهما يعلّمان الفضيلة مهنة رئيسة يُتقنانها. ولم يملك سقراط أمام هذا التحوّل المفاجئ في المهنة التي يدّعي هذان السفسطائيّان إجادتها إلاّ أن تظاهر بتصديقهما، وقدّم نفسه على أنّه وكلينياس أوّل المتشوّقين لتعلّم الفضيلة منهما. ولكن هيهات أن يصدق هذان السفسطائيّان في قولهما، وأن تكون الفضيلة هي ما يسعيان إلى تعليمه. وهذا ما وضّحه سقراط لكلينياس، عندما فاجأته طريقة تدخّلات هذين السفسطائيّين وأسلوبهما في الكلام. وكانت معرفة سقراط بأساليب السفسطائيّين كافية لتبديد هذا العجب، وإيضاح ما في كلامهما من خداع وتلاعب بالكلمات، ومقارنات بعيدة عن واقع الأشياء، وتعريفات غير ثابتة أفضت بهما إلى إنكار وجود جملة من الأشياء، من نحو الجهل والرأي الباطل، وهو ما نقضه أرسطو بقوله سائلاً: "إذا كان لا يوجد بهتان ولا رأي باطل ولا جهل، لا يمكن وجود هكذا شيء كالعمل الخاطئ، لأنّ إنساناً لا يستطيع أن يخفق في عمل ما يكون عامله" (المصدر نفسه: 151/3). وحتّى يبيّن سقراط لمحاوريه أنّهما أبعد الناس عن تعليم الفضيلة، ألقى على يوثيديموس السؤال التالي، متظاهراً بالسذاجة والغباء، قائلاً: "والآن سأسألك سؤالي الغبيّ: إذا كان لا يوجد هكذا شيء في المأثرة والكلمة أو الفكر، إذن وباسم الصلاح ماذا أتيتما هنا لتعلّما؟ ألم تقولا لتوّكما إنّكما تقدران على أن تعلّما الفضيلة أفضل ممّا يعلّمها الرجال كلّهم، ولأيّ شخص يكون مستعدّاً لأن يتعلّم؟". (المصدر نفسه: 151/3)

من هذا المنطلق، اعتبر سقراط الحكمة هي الخير الوحيد، ودعا إلى أن تكون المعرفة هي غاية ما يطلبه المتعلّم من أستاذه، ونادى بضرورة أن تتعدّى تلك المعرفة المواضيع والمسائل النظريّة إلى المعرفة بكيفيّة

استعمالها على النحو الذي ينفع ويُفيد. وقد جاء التطرّق لهذه المعرفة البديلة في إطار الحديث عن موضوع السعادة وكيفيّة تحقّقها، وهل "يجب أن نكون سعداء بسبب وجود الأشياء الخيّرة" (المصدر نفسه: 3/ 140) وامتلاك الإنسان إيّاها. وقد كان موقف سقراط واضحاً، إذ هو يرهن تحقّق سعادة الإنسان باستعماله الأشياء الخيّرة التي هي في حوزته. فالنجّار الذي "يحوز على كلّ الأدوات وعلى وفرة من الخشب، لكنّه لم يشتغل، فهل سيحصل على أيّة منفعة من حيازتها؟" (المصدر نفسه: 3/ 140). ويضيف سقراط إلى شرط الحيازة شرطاً آخر يتمثّل في ضرورة أن يستعمل الإنسان تلك الخيرات بحقّ؛ أي أن يُحسن استعمالها على النحو الذي يجلب المنافع ويدرأ الأضرار. وتبقى المعرفة هي التي توجّه امتلاك الخيرات واستعمالها نحو طريق السعادة، وهي "التي تهدينا إلى الاستعمال الصحيح [لتلك الخيرات] وتنظّم ممارستنا بشأنها على نحو قويم" (المصدر نفسه: 140/3). فلا نفع ولا فائدة تُرجيان من امتلاك الإنسان أشياء خيّرة "إذا لم يكن لديه فهم جيّد أو حكمة". فالخيرات - أيّاً كان نوعها- "لا يمكن اعتبارها كخيرات في أنفسها، لكنّ درجة الخير والشرّ فيها تتوقّف على إذا ما كانت تحت هداية المعرفة أم لا". (المصدر نفسه: 140/3)

في هذا الإطار جاء ذكر الخطابة متمثّلاً في ذلك السؤال الذي وجّهه سقراط إلى كلينياس قائلاً: "افترض أنّنا كنّا سنتعلّم فنّ تأليف الخطب، أيكون ذلك هو الفنّ الذي سيجعلنا سعداء؟" (المصدر نفسه: 155). وقد أجاب كلينياس بالنفي مستدلاً على ذلك بوجود مؤلّفي أحاديث مهرة أخفقوا حين خطبوا في الجماهير خطباً صنعوها بأنفسهم، ووجود رجال عاجزين في مجال القول وصناعة الخطب، و"لكنّهم قادرون على أن يستعملوا الخطب التي يصنعها الغير لهم" (المصدر نفسه: 155/3). وقد وافق سقراط على هذا الرأي، وثنّى عليه بإبداء إعجابه بالخطباء وإجلاله فنّ القول الذي يراه فنّاً سماويّاً ونبيلاً. يقول سقراط: "نعم، وإنّني أتبنّى كلماتك لتكون برهاناً كافياً على أنّ تأليف الخطب ليس وحده الذي يجعل الإنسان سعيداً. ومع ذلك لم أعتقد أنّ المعرفة التي كنّا نبحث عنها لفترة طويلة يمكن أن تكتشف في ذلك الاتّجاه، لأن مؤلّفي الخطب كلّما قابلتهم ظهروا لي أنّهم رجال استثنائيّون على الدوام - يا كلينياس- وفنّهم هذا سامٍ وإلهي، ولا عجب في ذلك، ففنّهم هو جزء من فنّ السحر العظيم، وهو أقلّ أهمّية منه بالكاد، إذا كان ذلك مطلقاً. وحيث إنّ فنّ الساحر يكون صيغة لسحر الأفاعي والعناكب والعقارب والآفات والمخلوقات الأخرى، فإنّ فنّهم يفعل فعله على القضاة ورجال الدين وعلى اجتماعات الرجال الآخرين الضخمة، لسحرهم وتطييب خاطرهم". (المصدر نفسه: 155/3-156)

وقد قاد استحضار الخطابة هذا الاستحضار إلى السؤال عن الفنّ الملكيّ الذي يمكن أن يحقّق سعادة الإنسان. وكان جواب سقراط الأوّل على النحو التالي :"أعتقد أنّ فنّ القائد العسكريّ يكون فوق كلّ الفنون الأخرى. إنّه الوحيد الذي يكون امتلاكه هو الأكثر احتمالاً ليجعل الإنسان سعيداً" (المصدر نفسه: 156/3). وفي مرحلة متقدّمة من الحوار، وفي ضوء ما أبداه كلينياس من احتراز وشكّ في أن يكون فنّ القائد العسكريّ هو "الذي سيجعلنا محظوظين"، وأنّه "ليس الفنّ المرتجى"، في ضوء ذلك عدّل سقراط جوابه، ووجد فنّاً آخر أحقّ بأن يكون ملكيّاً، ألا وهو الفنّ السياسيّ الذي يُعتبر فنّ القائد العسكريّ جزءاً منه، والذي "هو مصدر

الحكومة الخيّرة، والذي يمكن أن يوصف في لغة آيسخيلوس كأنّه الوحيد الجالس في مقبض دفّة مركب الدولة، هادياً وحاكماً كلّ الأشياء أو مستفيداً منها". (المصدر نفسه: 158/3)

وعلى الرغم من اعتداد سقراط بهذا الفنّ وجعله إيّاه فوق سائر الفنون، فإنّه يُقرّ بأنّ لكلّ فنّ من الفنون سلطة وكلمة في ميدانه، ونفعاً وفائدة على الإنسان. ففنّ الطبّ له سلطته السامية في مجاله، وفائدته تتمثّل في إنتاج الصحّة. وفنّ الزراعة ملك في مجاله، و"له سلطة عظيمة في ميدانه المختصّ به (...) يُمدّنا بفواكه الأرض". (المصدر نفسه: 158/3)

وقد ذُكرت الخطابة عرضاً في آخر المحاورة. وكان ذلك في معرض كلام سمعه كريتون من "إنسان ذي حجج جديرة بالاعتبار"، نقله إلى سقراط، وكان فحواه ذمّاً للفلسفة ولأهلها. فقد نعت هذا الرجل كلام الفلاسفة بالهراء. وقال: "إنّ الفلسفة هي لا شيء" (المصدر نفسه: 181/3). وفي تعليق سقراط على هذا الكلام شكّ واضح في الخطباء وسوء ظنّ بهم يتجلّيان في استفساره كريتون قائلاً: "دعني أعرف قبل كلّ شيء، أيّ نوع من الإنسان كان الذي أتى إليك، ولام الفلسفة؟ أكان هو الخطيب نفسه الذي يمارس الخطابة في محاكم العدل، أو معلّم الخطابيّين الذين يؤلّفون الخطب، والتي بها يتحاربون؟" (المصدر نفسه: 182/3). وقد انتهى سقراط بعد نفي كريتون أن يكون ذلك الرجل خطيباً، إلى أنّ مَن قدح في الفلسفة والفلاسفة لا يمكن إلاّ أن يكون من صنو أولئك الذين يقعون "على الحدّ الفاصل بين الفلاسفة ورجال الدولة، ويعتقدون بأنّهم أعقل الرجال كلّهم، وأنّهم مميّزون بشكل واسع" (المصدر نفسه: 182/3). ولكنّهم في الحقيقة عاجزون - بحكم وقوعهم في مرتبة وسط- عن امتلاك الكفاية من الفلسفة والسياسة، ومن ثمّ فهم دون الفلاسفة ورجال السياسة مرتبة.

والذي يهمّنا من هذه الحكاية نهايتها التي أبدى فيها كريتون خوفاً من ألاّ يجد في الأساتذة من يأتمنه على تعليم أبنائه وتعليم الشباب عموماً الفلسفة، لكثرة المدّعين في هذا المجال. فما كان من سقراط إلا أن هدّأ من روعه، وذكّره بأنّ الصالح - وإن كان قليلاً- موجود في كلّ مجال بما في ذلك الخطابة/علم الكلام. "ففي كلّ مهنة يوجد النوع الأسوأ هم كثرة، ولا يصلحون لشيء، وأنّ الصالحين قلّة، وليس لهم ثمن. كمثال، أليست الألعاب الرياضيّة وعلم الكلام واكتساب الثروة وفنّ القائد العسكريّ، أليست فنوناً نبيلة؟" (المصدر نفسه: 184/3). فالرأي عند سقراط أنّ وجود غالبيّة عظمى لا تُتقن تلك الفنون، ينبغي ألاّ يزهّد الناس في تعلّمها ولا في هجرها. فهمّة المرء يجب أن تتعلّق بالفنّ السامي، لا بمن يهواه ويتعقّبه ويدّعي حبّه.

بهذا انتهت محاورة يوثيديموس، وكان سقراط آخر متدخّل فيها، وكانت الفلسفة-حبّه الأوّل والأخير- هي المثال الذي اختاره من تلك الفنون، وهي التي أوصى كريتون بها خيراً لكي يعطف قلبه عليها، ويكون هو وأهله سعداء بتعلّمها وممارستها. يقول سقراط في آخر المحاورة: "كُنْ معقولاً- يا كريتون- ولا تهتمّ سواء أكان أولئك الذين يتعقّبون الفلسفة أخياراً أم أشراراً، بل فكّر في الفلسفة نفسها فقط، اختبرها جيّداً وبحقّ. وإذا كانت

سيّئة فحاول أن تبعد كلّ الرجال عنها، وليس ولديك فقط. لكن إذا كانت كما أعهد منها، فاتّبعها عندئذ، واخدمها أنت وكلّ أهل بيتك، كما يقول القول المأثور، وكن سعيداً". (المصدر نفسه: 3/184-185)

واضح من خلال هذه المحاورة، التي حاولنا أن نتوقّف على المواطن التي ذكرت فيها الخطابة، أنّ سقراط لا يناصب هذا الفنّ القوليّ العداء. نعم، لم تكن الخطابة في هذه المحاورة فنّاً ملكيّاً على شاكلة علم السياسة. ولكنّ سقراط لم يتردّد في إدراجها في المواضيع الجديرة بالاهتمام والتعلّم، وفي قائمة الفنون النبيلة، رغم أنّ فيها "وفي كلٍّ من هذه الفنون تكون الغالبيّة العظمى ممثّلين مضحكين". وحتّى الخلاف القائم في هذه المحاورة بين سقراط ومحاوريْه السفسطائيّيْن، لم يكن سببه انتصاب يوثيديموس وديونيسودوروس مدرّسين للخطابة، بل كان جرّاء تلك الفلسفة المضلّلة التي بسطاها ومارساها أثناء المحاورة، وبسبب ادّعائهما الزائف امتلاك القدرة على تعليم الناس الفضيلة، وجعلهم سعداء على هذه الأرض.

3– محاورة بروتاغوراس: اعتراض سقراط على الخطابة منهجاً واختصاصاً

يُرجع الدارسون كتابة أفلاطون محاورة بروتاغوراس إلى زمن قريب من زمن كتابة محاورة يوثيديموس. وبغضّ الطرف عن اختلاف الدارسين في قراءة هذه المحاورة، وتأويل المواضيع التي دارت عليها، وإقامتهم مقارنات بينها وبين محاورة غورجياس، و تحديداً بين علاقة سقراط ببروتاغوراس من جهة وسقراط بغورجياس من جهة أخرى (Stauffer, 2006: 38)، بغضّ الطرف عن ذلك كلّه، تظلّ هذه المحاورة بحثاً في السفسطة التي أظهر هيبوقراط (Hyppocrates) الشابّ الفتيّ في فاتحة المحاورة توقاً إلى تعلّمها وأخذها من أحد الأساتذة البارعين في علم الكلام، ألا وهو بروتاغوراس. وقد طلب هيبوقراط من سقراط أن يرافقه للقاء هذا الأستاذ الموجود في أثينا. فكان الذهاب إلى بروتاغوراس والحديث معه فرصة انتهزها سقراط كي يختبر هذا السفسطائيّ في صناعته، وفي ادّعائه القدرة على تعليم الناس الفضيلة والحكمة. وهذا ما يظهر في أحد تدخّلات سقراط قائلاً: "إذن، فأنت تمتلك فنّاً نبيلاً بحقّ، إذ لا خطأ بشأن هذا. إنّني سأتكلّم إليك - يا برتاغوراس- بكلّ إخلاص، وأعترف بأنّي اعتدت أن أعتقد أنّ هذا الفنّ لا يمكن تعليمه، ومع ذلك فأنا لا أعرف كيف أنكر إثباتك. وعليّ أن أخبرك لماذا أتصوّر أنّ هذا الفنّ لا يمكن تعليمه أو نقله من إنسان إلى إنسان". (المصدر نفسه: 3/53)

ولم تكن الخطابة لتُذكر في هذه المحاورة إلاّ لأنّها أساسيّة عند السفسطائيين. فهم يحذقونها ويبرعون فيها ويعلّمونها التلاميذ مقابل أموال طائلة. وحتّى يفتح سقراط بصيرة هيبقراط على الخطر الذي سيعرّض نفسه له، عندما قرّر الذهاب إلى السفسطائيّ بروتاغوراس، كي يطلب الحكمة منه ويسلّمه روحه يفعل بها ما يشاء، سأله جملة من الأسئلة أراد أن يبيّن له من خلالها الفرق بين طبيب تدفع له المال ليصنع منك طبيباً، ونحّات تُعطيه مكافأة لتعليمه إيّاك فنّ النحت من جهة، وسفسطائيّ تستعدّ لأن تدفع له بسخاء، من غير أن تعرف بالتحديد ما

الذي سيصنع منك، وما هي المعرفة التي سيعلّمك إيّاها من جهة أخرى. نعم، لقد كان سؤال سقراط واضحاً ومحدّداً: "ما هي حكمة السفسطائيّ؟ وما هي الصناعة التي يشرف عليها؟" (المصدر نفسه: 53/3). وفي جواب هيبقراط عن هذا السؤال ذُكرت الخطابة، باعتبارها الفنّ الذي يمارسه السفسطائيّ ويعلّم التلاميذ إيّاه، كي يصبحوا قادرين على صناعة القول. "فالسفسطائيّ يشرف على الفنّ الذي يجعل الناس بلغاء" (المصدر نفسه: 45/3)، وهو جواب لم يقنع سقراط، لأنّ البلاغة التي يدّعي السفسطائيّ تعليم الناس إيّاها فضفاضة لا تشير إلى مجال بعينه يستأثر السفسطائيّ بمعرفته ويكون فيه بليغاً دون غيره. فجواب هيبقراط: "يستدعي سؤالاً أبعد: عن ماذا يجعل السفسطائيّ الإنسان يتكلّم ببلاغة؟". (المصدر نفسه: 45/3)

وقد تمّت الإشارة إلى الخطابة أيضاً، عندما وصل سقراط وهيبقراط إلى منزل بروتاغوراس ودخلا عليه في مجلسه، وعبّرا له منذ البداية عن رغبتهما في أن يعرفا ما سيحدث للتلميذ الذي يرافق سفسطائيّاً ويقضي معه ساعات في التعلّم. وكان جواب برتاغوراس الذي توجّه به إلى هيبقراط واعداً وغامضاً في آن معاً :"أيّها الشابّ، إذا رافقتني فستعود إلى بيتك من اليوم الأوّل بالتحديد إنساناً أفضل ممّا أتيتَ، وأفضل في اليوم الثاني من اليوم الأوّل، وكلّ يوم أفضل من اليوم السابق الذي أتيتَ فيه إليّ" (المصدر نفسه: 52/3). وقد كانت الخطابة من بين الأشياء التي يتعلّمها مرافقو بروتاغوراس، والتي ذكرها إلى جانب معارف أخرى، عندما طلب إليه سقراط بيان مقصوده من جوابه السابق. فالذي سيؤمّ مجلس بروتاغوراس ويأخذ الحكمة منه "سيتعلّم ذلك الذي يأتي ليتعلّمه، ويكون هذا التعقّل في الشؤون الخاصّة كما العامّة. إنّه سيتعلّم أن ينظّم بيته الخاصّ في أفضل أسلوب، وسيكون مؤهّلاً لأن يتكلّم ويفعل في الشؤون التي تخصّ الدولة بشكل كامل". (المصدر نفسه: 53/3)

وفي ردّ سقراط على هذا الإيضاح سخريّة وتشكيك واضح في قدرة السفسطائيّ على أن يجعل من تلاميذه قادرين على التدخّل في كثير من المسائل بمجرّد جعلهم قادرين على الإتيان بالكلام البليغ. فتلك الأمور موكولة إلى أهل الاختصاص كلمتهم مسموعة ورأيهم معتبر، وهم المدعوّون إلى الاستشارة قبل أخذ القرار في أيّ أمر من الأمور. أمّا الخطباء، فلا مكانة لهم في الجمعيّة العموميّة، وليس لهم ما يدلون به، لأنّهم يفتقرون إلى اختصاص بعينه، ومن ثمّ هم ليسوا من أهل الخبرة في أيّ ميدان من الميادين. يقول سقراط: "ألاحظ الآن أنّنا عندما نتقابل معاً في الجمعيّة العموميّة، والمسألة التي سنبحثها تخصّ البناء، فالبنّاؤون هم المدعوّون كمستشارين. وعندما يكون السؤال عن بناء السفن، يستدعى صانعو السفن حينئذ (...). وإذا تقدّم لنصحهم شخص لا يرون عنده أيّة براعة في الفنّ، رغم بهاء طلعته وثرائه ونبله، فهم لن يستمعوا إليه، بل يضحكون منه ويستهجنونه. فإمّا أن يحبط ويعتزل بنفسه، أو يسحب بعيداً، ويوضع خارجاً حسب أمر الاختصاصيّين". (المصدر نفسه: 53/3-54)

وعلى خلاف المسائل التي تستدعي أهل الاختصاص للحسم فيها، يرى سقراط شؤون الدولة باباً مفتوحاً يحقّ لكلّ فرد أن يعبّر فيه عن رأيه. يستوي في ذلك النجّار والمفكّر والتاجر وقبطان الباخرة. فالتجربة تؤكّد أنّ مثل هؤلاء أسدوا نصائح في هذا المجال من غير أن يتلقّوا تعليماً من أيّ أستاذ. وعلّة ذلك في تقدير سقراط أنّ المعرفة التي تتعلّق بشؤون الدولة لا يُستطاع تعليمها، وهو ما يصدق أيضاً على الفضيلة التي قدّم سقراط أمثلة حيّة وضّح من خلالها لبروتاغوراس أنّها ممّا لا يمكن تعليمه، وأنّ الإنسان يهتدي إليها من تلقائه. وعلى هذه المسألة دار الخلاف بين سقراط وبروتاغوراس في هذه المحاورة.

ومن المواطن التي يمكن أن نستشفّ من خلالها موقف أفلاطون من الخطابة، تلك التي عبّر فيها سقراط عن امتعاضه من تدخّلات بروتاغوراس الطويلة الشبيهة بالخطب الرنّانة والبعيدة كلّ البعد عن المنهج الجدليّ القائم على إلقاء الأسئلة والجواب عنها. ومن هذه المواضع قول سقراط: "يا بروتاغوراس، إنّني أمتلك ذاكرة سيّئة. وحينما يؤلّف أيّ شخص لي خطاباً طويلاً، لا أتذكّر ما الذي يتكلّم عنه أبداً، كما لو كنت أصمّ (...). أسألك أن تختصر أجوبتك، وتجعلها أقصر، إذا ما أردتني أن أتبعك". (المصدر نفسه: 75/3)

وضيق سقراط بالمنهج الخطابيّ الذي يعتمده بروتاغوراس في تدخّلاته، يظهر أيضاً في التماسه من أحد الحاضرين، ألا وهو ألسيبياداس، أن يطلب إلى بروتاغوراس ويسأله "ليقصّر أجوبته، وأن يلتزم بالنقطة الرئيسة، كما فعل في البدء. وإلاّ فأيّ نوع من الشيء سيكون بحثنا معدّاً له؟ إنّ البحث شيء، وصياغة خطاب شيء آخر تماماً في رأيي المتواضع" (المصدر نفسه: 77/3). وواضح ههنا أنّ سقراط، ومن ورائه أفلاطون، لا يرى للنقاش جدوى تصل بالمسائل المثارة فيه إلى غاية معيّنة، إلاّ إذا توخّى المتحاورون فيه المنهج الجدليّ القائم على إلقاء الأسئلة والإجابة عنها باختصار، وتركوا المنهج الخطابيّ الذي يقوم على الإطالة واستعراض القدرات البلاغيّة، ومن ثمّ لا يُعين على تمحيص المسائل وتقليب النظر فيها على النحو الذي يفضي إلى معرفة الحقيقة. وقد تفطّن كالياس أحد آخر الحاضرين لهذا الصراع المنهجيّ القائم بين سقراط وبروتاغوراس، ولرغبة كلّ واحد منهما في أن يجرّ الآخر إلى "منطقته" ويفرض عليه منهجه. وهذا ما يظهر في مخاطبته سقراط قائلاً :"لكنّك ترى - يا سقراط - أنّ بروتاغوراس يمكن أن يطالب بطريقته الخاصّة بحقّ، كما تطالب أنت لتتكلّم بطريقتك". (المصدر نفسه: 77/3)

وقد رأت مكوي في قراءتها لمحاورة بروتاغوراس أنّ من أهداف تسليط أفلاطون الضوء في هذه المحاورة على الهوّة التي تفصل بين سقراط وبروتاغوراس في مستوى المنهج، بيان قيمة السؤال والجواب باعتبارهما صيغة فلسفيّة في القول إيجابيّة وبنّاءة، و شكلاً من أشكال الخطابة الفلسفيّة التي يدعو أفلاطون إليها. فمواظبة سقراط على السؤال يُعدّ- في تقدير مكوي- كيفيّة في القول لا تقلّ أهمّية الشكل فيها عن المضمون المعبّر عنه (McCoy, 2008: 59).

4– محاورة مينون: نقد الخطابة من خلال السخرية من بعض ممارسيها

يطرق أفلاطون في هذه المحاورة - التي كتبها سنة 387 ق. م إثر زيارته الأولى صقليّة- بحثه موضوع الفضيلة، هل تُكتسب بالتعليم والممارسة أو هي تأتي إلى الإنسان بالطبيعة. وقد كان للخطابة حضور غير مباشر في أوّل تدخّل لسقراط لم يخل من نبرة ساخرة من أهل صقليّة ومن غورجياس تُستشفّ من تحسّر سقراط على كون الحكمة هجرت أثينا الموطن الأصليّ لها، وانتقلت على يدي غورجياس إلى الصقليّين. ولكن شتّان بين حكمة حقيقيّة ينشرها سقراط في صفوف شباب أثينا ويضحّي بحياته من أجلها، وحكمة زائفة أشاعها غورجياس بين الصقليّين، حين نزل عندهم، وحصل منهم على أموال طائلة مقابل تعليمهم معرفة مغشوشة لا تعدو القدرة على أن يجيب المتعلّم بأسلوب فخم عمّا يُلقى عليه من أسئلة بأجوبة متوقّعة. وهذا ما عناه سقراط في ردّه على سؤال مينون: "وقد علّمك [يعني غورجياس] عادة الإجابة على الأسئلة بأسلوب رائع وجريء يعتبر طبيعيّاً لأولئك الذي يعرفون، ويمكن توقّعه من واحد يكون هو نفسه جاهزاً وعازماً على كلّ الأسئلة التي يطرحها الآتون إليه. كم هو مختلف خطّنا عن خطّه! يا عزيزي مينون. هناك ندرة من هذه البضاعة هنا في أثينا. ويبدو أنّ الحكمة كلّها هجرتنا إليكم" (المصدر نفسه: 197/3). فالإشارة غير خفيّة ههنا إلى التعارض القائم بين خطّين: خطّ تمثّله خطابة السفسطائيّين وخطابة غورجياس على وجه التحديد، وخطّ آخر تمثّله فلسفة سقراط.

وقد ذُكرت الخطابة السفسطائيّة مرّة أخرى من خلال سؤال سقراط عمّن هم الذين يعلّمون الحكمة والفضيلة "اللّتين بهما ينظّم الرجال الدولة أو تدبير المنزل". وقد طلب سقراط من أنيتوس أحد الحاضرين أن يساعده في الإجابة عن هذا السؤال. وكانت المقارنة واضحة بين معارف ومجالات دقيقة يمكن تعليمها، مثل الطبّ يُرسل الراغب في تعلّمه إلى طبيب يعلّمه المهنة، وصنع الأحذية حرفةً تُتعلّم عند الإسكافيّ، والفضيلة لا يمكن لأحد أن يدّعي القدرة على تعليمها ونقلها إلى الإنسان، مثلما أوهم السفسطائيّون الناس بذلك طارحين "تعليمهم بشكل علنيّ ومفتوح لأيّ هيلينيّ يرغب ويختار ليأتي إليهم، ويدفع لهم أجوراً يحدّدونها هم". (المصدر نفسه: 232/3)

وكانت سخرية سقراط من أحد كبار الأساتذة السفسطائيّين الذين استحضرهم واضحة، نعني بذلك بروتاغوراس. فقد تظاهر سقراط بإبداء العجب من أن يكون بروتاغوراس قد أفسد الشباب وخدعهم أكثر من أربعين سنة مارس خلالها الخطابة السفسطائيّة، وأعاد فيها تلاميذه في حالة أسوأ من الحالة التي استلمهم فيها، من غير أن يقع الكشف عن غشّه وسوء البضاعة التي كان يروّجها بينهم، ويقع في المقابل الكشف عن غشّ رتّاء الأثواب أو مصلح الأحذية القديمة الناس لو خدعا الناس مدّة شهر واحد وأعادا إليهما في تلك الفترة الأثواب والأحذية في حالة أسوأ من الحالة التي استلموها. أمّا أنيتوس فلم يكن نقده السفسطائيّين أقلّ حدّة من نقد سقراط إيّاهم، وإن كان ذلك بأسلوب غير مباشر. فقد ألقى أنيتوس باللاّئمة على كلّ من يدفع للسفسطائيّن أجراً،

وعلى كلّ من يرسل أبناءه إليهم لتعلّم الفضيلة، وعل كلّ من يفتح الأبواب في وجوههم لدخول المدن وإشاعة أفكارهم فيها. يقول أنيتوس: "إنّ الرجال والشباب الذي يعطون مالهم إليهم هم المعتوهون. وإنّ أقاربهم والقيّمين عليهم الذين يعهدون بفتيانهم إلى عناية هؤلاء الرجال لهم أكثر جنوناً. وأكثر من كلّ هذا، إنّ المدن التي تسمح لهم بدخولها، ولا تطردهم خارجها، فمواطنوها وغرباؤها هم مجانين بشكل متشابه". (المصدر نفسه: 234/3)

وغير بعيد عمّا انتهت إليه المحاورتان السابقتان يوثيديموس وبروتاغوراس، خلصت محاورة مينون إلى أنّ الفضيلة ليست معرفة تُنقل بالتعليم، بل هي هديّة من الطبيعة والسماء. وإذا كان قد وُجد في أثينا قادة سياسيّون أرشدوا دولهم بالرأي الصحيح، فذلك لا يعني أنّهم تعلّموا الحكمة والمعرفة، بل إنّهم كانوا ملهمين في توفيقهم في إدارة الدولة، مثلما يُلهم المتنبّئون والأنبياء، وينجحون بسبب ذلك الإلهام في العديد من المآثر، من غير أن يكون لهم فهم ومعرفة. ولهذا السبب يرى سقراط أنّ أولئك القادة الناجحين والملهمين، مثل بيرقلس، لا يمكنهم أن ينقلوا إلى الآخرين فضيلة لم تكن مركوزة فيهم على المعرفة، ومن ثمّ لا يمكنهم أن يجعلوا من غيرهم عظماء مثلهم. يقول سقراط: "سنكون محقّين إذن أيضاً في تسمية المتنبّئين، أولئك الذين كنّا متكلّمين عنهم لتوّنا، كمتنبّئين وأنبياء، بمن فيهم كلّ قبيلة الشعراء. نعم، ويمكننا أن نصنّف رجال الدول مع هؤلاء ليس بأقلّ من متنبّئين وملهمين، كونهم ممتلكين بالله وممتلئين بروحه. والذين يقولون في حالتهم تلك العديد العديد من الأشياء العظيمة غير عارفين ما يقولون". (المصدر نفسه: 246/3)

على هذا النحو غير المباشر حضرت الخطابة في مينون، فلم تكن موضوعاً خاض فيه سقراط مع محاوريه مينون وأنيتوس، لا ولم نجد تعريفاً لها أو نقاشاً دار حول وظائفها. فالخطابة لم تُذكر إلاّ في سياق ادّعاء السفسطائيّين الذين مارسوها واتّخذوها مهنة القدرة على تعليم الشباب الحكمة والفضيلة. من هذا المنطلق لم تكن الخطابة في مينون عرضة للنقد، ولم يوجّه أفلاطون سهامه مباشرة نحوها، بل كان السفسطائيّون الذين ذَكر منهم غورجياس وبروتاغوراس هم من سخر منهم، وفضح حقيقة المعرفة التي كانوا يجنون من نقلها إلى شباب المدن التي يرحلون إليها أموالاً أكثر من تلك التي كان يجنيها أبرع النحّاتين الذين يبدعون أعمالاً نبيلة على حدّ تعبير سقراط. (المصدر نفسه: 233/3)

من هذا المنطلق رأى كيمبي، أنّ هذه المحاورة والمحاورتين الأخريين، تعكس موقفاً معتدلاً أبداه أفلاطون من الخطابة. "فأفلاطون كان منزعجاً من إطناب السفسطائيّين القول بدون موجب. وقد وبّخهم على إخفاء عجزهم عن الجواب على أسئلته باستعمالهم لغة غزيرة وأفكاراً لا صلة لها بالسؤال. ومع ذلك، فالعيب لم يكن عيب الخطابة، بل عيب أولئك المتكلّمين الذين يفتقرون إلى الفلسفة ويجهلون المنهج الجدليّ". (Quimby, 1974: 75)

على سبيل الختم:

حاولنا في هذه الدراسة أن نقفو أثر الخطابة في ثلاث محاورات، لم نجد الدارسين يتوقّفون عليها ويتناولونها بالتحليل، حين يتعلّق الأمر بالتأريخ لنشأة الخطابة عند اليونان واستخلاص آراء أفلاطون فيها ومواقفه منها. وقد كان عزوف الدارسين عن هذه المحاورات وعدم عودتهم إليها راجعيْن بكلّ بساطة إلى كونها تخلو من حديث مباشر عن الخطابة، مثلما هو الأمر في المحاورتين الشهيرتين: غورجياس وفيدر. وقد لاحظنا أنّ الموضوع الذي دارت عليه هذه المحاورات واحد، ألا وهو الفضيلة التي يُنكر سقراط أن تنقل بالتعليم، بينما يُنصّب السفسطائيّون أنفسهم أساتذة يعلّمون الناس إيّاها. ومن الطبيعيّ- في تقديرنا- أن تُستحضر الخطابة في غمار الخوض في مثل هذا الموضوع، وأن يأتي ذلك في سياقات متنوّعة أشرنا إليها وضربنا أمثلة عليها، واستخلصنا من بعضها وجود صراع غير معلن بين منهج جدليّ توخّاه سقراط في هذه المحاورات ومنهج خطابيّ اعتمده محاوروه السفسطائيّون، وهو صراع ستتّضح ملامحه أكثر في محاورة غورجياس التي نأمل أن نخصّها بدراسة لاحقة في إطار تعقّبنا موقف أفلاطون من الخطابة.

قائمة المراجع:

- أفلاطون: **المحاورات الكاملة**، المجلّد الثالث، نقلها إلى العربيّة شوقي داود تمراز، الأهليّة للنشر والتوزيع، بيروت، 1994

- الريفي (هشام): الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب **"أهم نظريّات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم"**، إشراف حمّادي صمّود، منشورات كلّية الآداب بمنّوبة، تونس، 1998

- Black, E. (1958): Plato's View of Rhetoric. Quarterly Journal of Speech. No 44

- Herrik, J. A. (2008): The History and Theory of Rhetoric: An Introduction.

- Kennedy, G. (1963): The Art of Persuasion in Ancient Greece. Priceton University Press.

- Kennedy, G. (1999): Classical Rhetoric and its Secular and Christian Tradition. 2d edition. University of North Carolina Press.

- McCoy, M.(2008): Plato on the Rhetoric of Philosophers and Sophists. Cambridge University Press.

- Quimby, R. W.(1974) :The Grow of Plato's Perception of Rhetoric. Philosophy & Rhetoric, Vol. 2.

- Stauffer, A. (2006): The Unity of Plato's Gorgias. Cambridge University Press.

- Vickers, B. (1988): In Defence of Rhetoric. Clarendon Press, Oxford.

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com